ســـــقوط بولنـــــدة

للشاعر « توماس كامبل »

للأستاذ محمود عزت عرفة

انطوت ثلاثة أعوام كوامل على حادث اجتياح « بولندة » الذى اندلعت بسببه نيران هذه الحرب القائمة ؛ وفى الواقع أن بلداً من البلاد لم يُمنَ بمثل ما مُنيتْ به « بولندة » من عدوان جاراتها المتتابع عليها ... ففى منتصف القرن الثامن عشر — وكان نظام الإقطاع إذ ذاك يفتك بعوامل الاستقرار والهدوء فيها — أحست الدول الطامعة فى امتلاكها — لأول مرة — بسنوح الفرصة التى طال ارتقابها ؛ فاقترح فردريك الأكبر ملك بروسيا على كل من النمسا وروسيا الاشتراكَ معه فى اجتياح هذه البلاد . وتم ذلك عام ١٧٧٢ م ، حيث اقتسم الجميع ثلث مساحتها ، فى حين وضعوا لسائرها استقلالاً اسميًّا ، وتركوا السلطة الحقيقية فى يد معتمد روسى يقيم فى « وارسو »

وبعد عشرين عاماً من هذا التاريخ ، اتجهت أنظار أوربا جميعها إلى فرنسا وثورتها العارمة ؛ واختلس الروس هذه الفرصة فاجتاحوا بقية بولندة واحتلوا عاصمتها عام ١٧٩٢ م

وقد لاذ الوطنيون البولنديون بأذيال الفرار ، حيث تجمعوا بإقليم سكسونيا (فى شمال بوهيميا) ، وكونوا حزباً سياسيًّا قويًّا برئاسة كوشيسكو

وكان هذا الأخير ممن تعلموا فى فرنسا ، وتغلغلت فى نفوسهم روح الحرية منذ طفولتهم ؛ وقد اشترك فى حرب الاستقلال الأمريكى انتصاراً منه للروح الوطنية أنَّى وجدت ... فكان فى الواقع خير من يقود مثل هذه الحركة !

وقد بدأ بتأليف جيش قوى تربص به حتى اندلع لهيب الثورة فى بولندة عام ١٧٩٤ م . فدخل البلاد منتصراً ، واحتلّ « وارسو » ، حيث أنشأ حكومة وطنية حرة ... وهنا استنجد الروس بالبروسيين ، وتمكنوا متحدين من هزيمة الوطنيين واحتلال وارسو مرة أخرى عام ١٧٩٥ م

وقد وقع « كوشيسكو » يوم ذاك أسيراً ، وجرت مذبحة رهيبة عند جسر مدينة براغة (شرق وارسو) راح ضحيتها عدد وفير من الوطنيين البولنديين ... واتفقت حينئذ كلمة روسيا وبروسيا والنمسا على محو بولندة نهائيًّا من مَصوَر أوربا السياسى ! فكانت تلك أشنع صورة للطغيان يسجلها تاريخ القرن الثامن عشر ؛ وقد ضجت أوربا والعالم المتحضر جميعاً لهذا الحادث الذى بدا فيه مبلغ استهتار القوة المسلحة بحقوق الأعزل الضعيف !

وفى هذه القصيدة يصور لنا « توماس كامبل » — وقد عاش بين سنتى : ١٧٧٧ م ، ١٨٤٤ م — مأساةَ « بولندة » فى عام ١٧٩٥ م

وهو يبدو فيها معبراً عن شعور الوطنيين ومحبى الحرية فى العالم جميعاً ، ممن آسفهم هذا الحادث وأمرض نفوسهم ... ولسنا هنا بسبيل ذكر كفاح بولندة لتخليص استقلالها طيلة القرن التاسع عشر ، أو إيضاح ما تلا ذلك من أحداث انتهت باحتلالها الأخير فى أول هذه الحرب الحاضرة ؛ فلكل ذلك مواضعه من أبحاث التاريخ ؛ وإنما نختم هذه المقدمة الضرورية بقولنا : إن قصيدة « سقوط بولندة » نشرت — لأول مرة — فى عام ١٧٩٩ م — أى بعد مأساة السقوط بأربع سنوات — ضمن ديوان للشاعر عنوانه « مباهج الأمل » ... وها هى ترجمتها :

أيتها الحقيقة المقدسة ! لقد تخلى عنك النصر ، ولكن إلى حين ، وفارقتْ أخاكِ « الأملَ » ابتسامتُه أسفاً عليك ... عندما توجه الظلم الناشم بجحافله إلى معترك الشمال ، وتحركت فرسانه من العُتاة أولى القوة ، ومشاته من « البندوريين[1] » ذوى السبال والعثانين : خافقة أعلامهم الرهيبة مع نسمات الصباح مدوية طبولهم فى دقات كهزيم الرعد ، مرتفعاً رنين أبواقهم فى شبه العويل ... !

إنه الفزع الأكبر فى ضجيجه وعجيجه ، يتحدّر مع طلائع الشر منذراً بولندة والعالم كله بالويل والثبور !

... أشرف بطل فارسوفيا الأخير[2] من مرباه العالى على

(١) فرقة من الجيش النمسوى تنسب إلى بندور Pandour ، وهى قرية من قرى هنغاريا

(٢) هو كوشيسكو Kosciusko الذى أشرنا إليه ، وقد اعتقل عقب هزيمة فارسوفيا عام ١٧٩٥ م ثم أطلق سراحه بعد حين . ولما رد عليه الأمبراطور سيفه تكرمة له رفضه قائلا : « ما حاجتى إلى حمل مثله ولست بذى وطن فأذوده عنه ! » وقضى بقية أيامه فى فرنسا حيث توفى عام ١٨١٧ م

سهول ألم بها الخراب واجتاحتها جوائح الدمار ، فصاح من قلب منكوء :

يا إلهي ، ضمد جراح وطني الكليم ... أما ثمة يد قوية تشد أزر الأبطال المجاهدين ؟ ولكن ... ليعثث في أرضنا شياطين الفناء ، ولتُشجِم عليها سحائب المنايا ... فالوطن حي برغم ذلك باق ؛ وباسمه الرهيب نشهر أسيافنا البواتر ... فانهضوا يا رفاق ؛ وأقسموا جميعاً أن تعيشوا من أجله أو تموتوا فداء له !

* * *

قال البطل هذا ، ثم انكفأ إلى رجاله البواسل ينظِمهم صفوفاً خلف الأسوار الحصينة ... فئة قليلة لا ينقصها الإيمان ولا تعوزها النجدة ... قوة متماسكة مرهوبة السطوة ، تخطو في ثبات وفي أناة معاً : مترفقة كأنها النسيم العابر ، متدفقة كأنها العواصف الهوج !

... وانتقلت الأصوات خفيضة هامسة تموج مع الهواء موج البنود ، مرددة شعارهم الذي به يتعارفون : « الانتقام ... أو الموت » ؛ ثم ارتفع الضجيج عالياً قوياً يستلب النهى ، وطنّت نواقيس الإنذار تعلن الخطر الداهم ، وتبلغ التحذير الأخير !

* * *

ولكن . . . يا للأسف ! عبثاً أيتها القبلة الباسلة أن تنتال قذائفك مدوية كالرعد بين الصفوف ... إنها لأشنع صورة وأدماها يسجلها التاريخ في سِفر الأيام ! (سَرْماتيا[1]) تسقط صريعة في غير جرم ، فما تُبكى عليها عينٌ بقطرة من دمع ... !

واهاً لها ... لم تجد الصديق كريماً ولا العدو رحيماً ... !

لم تسعفها القوة وهي في سلاحها وعدتها ، ولا أبقت عليها الرحمة وهي في محنتها وبلواها ...

هو رديْنُها المسَّال من يدها الواهنة قِصَداً ، وأغمضت عيناها الوامضتان ببريق الحياة ، وناءت بكاهلها أثقال الطغيان ، فما أطاقت النهوض

ها هو ذا الأمل يقرع سمع الدنيا بكلمة الوداع مولياً عنها إلى حين ؛ والحرية تعول صارخة إذ ترى (كوشيسكو) يهوى من عليائه ...

* * *

انحدرت الشمس إلى مغربها وما وقف سيل الدماء المواثر ، وبدد ضجيج القتل والقتال سكون الليل الغارق في غفوته ، وألقت لُهب الدمار ظلالها على قناطر (براغة) الفخمة[2] ؛ وتحدرت المياه من أسفلها مخضوبة بالدم القاني . ثم أعولت العاصفة فطفت على صرخات الجزع وصيحات الوهل المتصاعدة ؛ بينما أفسحت الحصون الصماء للغزاة طريقاً مهادها الأشلاء

ألا أصيخوا ... إن الأبنية المحترقة لتنهار في دوي يصم الآذان ؛ ومئات الأصوات الواهنة تجأر في طلب الرحمة والغوث وهي يائسة منهما ؛ حتى لكأنما الأرض تزلزل زلزالها ، والسماء ترمي من رجومها بكل شهاب ثاقب ! ...

إنها الطبيعة وقد أدركت هول الفاجعة تضطرب من أعماقها؛ والكون بأجمعه يهتز جزعاً لهذا البكاء والإعوال

* * *

أيتها الأرواح الذواهب . أرواح الأبطال الكماة وكل ذوي النجدة من الهالكين ... يا من استنزفوا دماءهم ولفظوا آخر أنفاسهم في ساحات القتال من مَراثون[3] ولِكْترا[4] ... يا حلفاء العالم وأصدقاء الإنسانية جميعاً : أبشروا سيوفكم من جديد لأجل (الإنسان) ؛ حاربوا في سبيل غايته المقدسة ؛ وقودوا طلائعه إلى النصر . ثم كفروا بالدم الصبيب من دموع « سرماتيا » التي تحدرت وهي بالنجيع مخضوبة ؛ واجعلوا لها من العتاد والعدة كما جعلتم لأوطانكم ...

آه لو يرتد إلينا الزمن برب الوطنية وربيبها (تيل)[5] ... أو بالملك الفارس (بروس)[6] بطل (بانُكْبرن) ... إذن لكان للحرية بهما قوة ؛ ولأوى الحق منهما إلى ركن شديد !

(جرها) محمود عزت عرفة

---

(١) سرماتيا Sarmatia : اسم قديم لبولندة

(١) براغة Praga : مدينة شرقي وارسو ، عندها جرت المذبحة الهائلة التي ذهب ضحيتها كثير من الوطنيين البولنديين . وهي غير (براج) الكائنة بتشكوسلوفاكيا

(٢) تقع مراثون Marathon على مدى ٢٥ ميلا من أثينا ، وفيها انتصر الاغريق بقيادة ملتيادس على جيوش الفرس عام ٤٩٠ قبل الميلاد

(٣) لكترا Leuctra : قرية واسم موقعة في اليونان هزم فيها إبا مناداس الطيبي قوات اسبرطة عام ٣٧١ ق . م

(٤) تيل Tell : محرر سويسرا وبطلها القومي ، ولا يعرف تاريخ حياته على وجه التحقيق

(٥) Bruce : روبرت بروس ملك اسكتلندا الذي استرد حرية وطنه من الانجليز بعد أن انتصر عليهم في موقعة بانكبرن عام ١٣١٤ م